PDF-XChange Editor Click to BUY NOW! tracker-software.com

الدين والتناول السوسيولوجي

أ. بيران بن شاعة / أ. بن الشين أحمد
قسم علم الاجتماع والديمغرافيا
جامعة الأغـــــواط

تقديـــم :

لمعالجة موضوع من هذا الشكل لا يمكن القفز على الخلفيات التاريخية التـــي رافقت الظاهرة الدينية ككل، سواء من حيث دراسة هـــذه الظـــاهرة أو مـــن حيـــث تطوراتها؛ في حد ذاتها، فيبدو أن الاعتقاد الذي كان سائدا حول نظرية تراجع الـــدين وتقدم العلم أصبحت في طريقها إلى الزوال، فقد سجل في العقود الأخيرة عودة متزايدة للدين وبرزت فكرة الحاجة إلى التدين، وتميزت هذه الفترة بعودة تكاد تكـــون حركـــة اجتماعية بالنظر إلى تداعياتها في هذه المرحلة.

على قدر أهمية التوصل إلى تعريف للدين، وعلى قدر صعوبة هـــذه المهمـــة تتجلى أهميته من منطلق أن السلوك الديني ، سلوك عام بين الكائنات الإنسانية، فليس هناك جماعة إنسانية ليس لديها سلوك ديني. ورغم أن هذا الـــسلوك مطلـــوب إلا أن "فيبر" يحاول أن يتجنب هذه البداية حيث يقول " أنه لكي نعرف الـــدين، أي مـــا هـــو الدين، هذا ليس ممكنا من بداية العرض ويمكن التعريف -إن وجـــد- عنـــد خاتمـــة الدراسة "[1]، لكننا سنحاول تقديم بعض التعاريف المتداولة رغم كثرتها علـــى ســـبيل المثال فقط لا الحصر.

PDF-XChange Editor
Click to BUY NOW!
tracker-software.com

PDF-XChange Editor
Click to BUY NOW!
tracker-software.com

أولا – الدين :

1.1- تعريف الدين :

لفظ الدين باللاتينية "**Religion**" والتي تعني الالتزام والتماسك، وقد شد انتباهنا تعريف الذي قدمه "تايلر" (**Tailor**) "حيث أن الدين بالنسبة له هو الاعتقاد في لكائنات الروحية"[2]، وكذلك نجد أن رادكليف بـــروان "**Radcliffe Brown**" يـــرى أن الـــدين متجسد في كل مناحي الحياة ،فيقول "في كل مكان تعبير في شكل أو آخر عن إحساس بالاعتماد التبعية لقوى خارج أنفسنا ،هذه القوى قد ينظر إليهـــا علـــى أنهـــا روحيـــة أو أخلاقية..."

وسنلاحظ أن هناك اتفاق بين "براون" **Brown** ودوركـــايم (**E.Durkhein**) على التأكيد لخصائص الجمعية أو الاجتماعية للدين والـــشعائر،حيث أن للـــدين عنـــد " دور كايم" أو للمقدس وظيفة ربط الناس بعضهم ببعض، في وحدة أخلاقيـــة حيـــث يرى أنه "نظام موحد من العقائد والممارسات ذو صلة بالأشياء المقدسة، وتوجد أشياء منفصلة وممنوعة والعقائد والممارسات التي توجد في وحدة أخلاقية تـــسمى الكنيـــسة وتضم كل الملتزمين".

وعلى رغم من فتور الوازع الديني في المجتمعات المعاصرة ،الذي يشككنا في هذا التعريف إلى حد ما، حيث ضعفت العلاقة بين الممارسة الدينية من جهة والعقيـــدة الدينية من جهة أخرى، أين نلاحظ أن هناك فتور في الممارسات أو النـــشاط الـــديني (الصلاة،...) مقابل، نسبة عالية فيما يخص العقيدة الدينية (إدراك التعاليم).

أما روبرتسون "**Robertson**" فيرى أن هناك، عددا من التعريفات الوظيفيـــة المستخدمة في علم الاجتماع الديني "فهناك التعريف الوظيفي للدين الذي يعرفـــه مـــن خلال الاهتمام "بالمسائل المطلقة" على أساس الافتراض القائل "بأن كـــل المجتمعـــات

PDF-XChange Editor
Click to BUY NOW!
tracker-software.com
PDF-XChange Editor
Click to BUY NOW!
tracker-software.com

أو كل الأفراد في المجتمعات لها مسائل مطلقة"، ومن جهة أخرى يظهر أن الدين في أعمال بارسونس هو المستوى الأعلى والأعم في الثقافة"

كما نجد هذا التعريف في مفاتيح العلوم الإنسانية، "الدين هو العادة مطلقا، يكون بمعنى الملة ويطلق على الفروع الخاصة "دين القيمة" أي الملة القيمة والملة بمعنى الطريقة والدين باعتباره الطاعة والانقياد[1]، كما أن "الدين منسوب إلى الله، والملة إلى الرسول والمذهب إلى المجتهد والشريعة إلى الله والنبي والمجتهد وهي حيث أنها يطاع بها تسمى دينا ومن حيث أنها يجتمع عليها تسمى ملة".

2.1- وظائف الدين :

إن ما يجعل المجتمع كهياكل وكعلاقات اجتماعية شيئا ممكنا، هو التصورات الجماعية، وقدرتها على توجيه الدوافع الفردية ورقابتها، إذ أنها تمثل إحدى الآليات الأساسية للاشتغال العمليات الاجتماعية "فمن مستلزمات العملية الاجتماعية توافر جملة مر الرموز والتصورات العامة التي تضمن حدا معينا من الرقابة والتوجيه، فالعمل الديني له دور نشط في جعل الناس ينخرطون في طلب الحياة الاجتماعية بطرق إيجابية، وهو موجه نحو دور الأفراد وجعلهم يفضلون المشاركة والمساهمة على الانسحاب والانزواء والتقوقع...[2] "، فالدين يشيع الجوانب الروحية في الإنسان ، والتي تشير إلى التسليم الشعوري من جانبه بوجود الله وإمكانية الإرتباط به، وذلك من خلال الأنشطة والممارسات الدينية المتضمنة في العبادات المختلفة، ولقد رأى بانكس "**Banks**" الجوانب الروحية فيما يلي[3] :

1- طاقة متكاملة تتجاوز الجانب الجسمي والنفسي والاجتماعي.

2- تدفع إلى المحاولة لإيجاد هدف ومعنى للحياة من خلال الارتباط بالله.

3- تزود الفرد بالقدرة على المشاركة في التواصل مع الآخرين من خلال الالتزام بميثاق أخلاقي.

PDF-XChange Editor Click to BUY NOW! tracker-software.com

PDF-XChange Editor Click to BUY NOW! tracker-software.com

4- تشمل العقيدة على توجيه سلوكه وتشكله...وهي قد تكون معتقدات شعورية أو لا شعورية تربط الفرد بالكون وتعطي لوجوده معنى وقيمة.

وللدين وظائف أو أثار اجتماعية على الأفراد والمجتمع حيث يساعد الفرد على أن يتسامى بغرائزه الحسية وأن يتهيأ لقبول أمور مكروهة (القضاء والقدر) مثل الموت، كما أنه يقي الفرد من الخوف والقلق، ويزوده بالطمأنينة والأمان، كما يؤدي إلى وحدة الجماعة وترابطها وتماسكها، فيوجد بين الأفراد في القيم والأهداف والمعاني، كما يبرز هذه القيم ويضبطها ويراقب سلوك الأفراد بما يفرضه عليهم من إجراءات، لأنه نظام فوقي ويعاقب على الفعل ويحرم ويحلل، وتمتد أثاره إلى كل النظم الاجتماعية الأخرى، مثل نظام الأسرة والزواج والنظام الاقتصادي والسياسي كما يمتد أثره للعلوم والفنون والتربية وكل الظواهر الاجتماعية الأخرى.

ثانيا- بداية دراسة الدين :

في تتبعنا لمسيرة بعض الدراسات الاجتماعية الغربية للدين، أدركنا أن المعتقدات والطقوس والشعائر الدينية، وفكرة التقديس والألوهية، كانت هي الأساس الذي بنى عليه صرح الدراسات الاجتماعية حيث "اعتمد الرواد الأوائل في الدراسات الاجتماعية الغربية على التراث الثقافي، الذي احتوته الأساطير والكتب المقدسة التي زخرت بمعلومات حول مجتمعات بائدة..."[(4)] ونلاحظ اليوم أن الكثير من المهتمين لا زالوا يعتمدون ويستلهمون من المبشيرين والرحالة وكبار المؤرخين مثل هيرودت (**HERODOTUS**) الذي كان له إسهامات في دراسة وتحليل ومقارنة النظم الدينية في المجتمعات القديمة، كما كان لإسهامات الرحالة والمؤرخين العرب والمسلمين إسهامات ذات شأن في هذا الباب منهم ابن فضلان، ابن بطوطة وكذا إسهامات ابن خلدون ومفكرون آخرون اهتموا بدراسة الأديان بل ولهم الفضل والسبق من أمثال أبو حسن الأشعري وأبو حيان التوحيدي.

PDF-XChange Editor Click to BUY NOW! tracker-software.com

إلا أنه يمكننا القول أن الدراسات الحديثة للدين أو ما يسمى بعلم الأديان قد بدأت في الغرب في القرن الماضي، وبعد نشر كتاب لـ فريدريك ميلر "F.Muller" عام 1870 والذي يعد أول كتاب في سلسلة مكونة من خمسين جزءا تضمنت "الكتب المقدسة للشرق".

واهتم الأنثربولوجيون والاجتماعيون بدراسة الدين متأخرين، ولعل البداية كانت مع الكشوف الجغرافية التي سبقت المرحلة الاستعمارية وكانت تمهيدا لسيطرة والهيمنة، وتواصلت هذه العملية التي تقوم على منهج المقارنة بين الثقافات، وقد ركزت التساؤلات المطروحة حسب "حيدر إبراهيم" في هذا السياق، هل الدين ظاهرة علمية ؟ ما هي أسباب الشعور أو السلوك الديني ؟ وما هي الأشكال الأولى للدين ؟

هذا الاهتمام بالدين لم يؤسس نظريات يمكن الاعتماد عليها في الدراسات السوسيولوجية للدين (علم اجتماع الأديان) ،لكن لا يمكن أن ننكر ذلك الكم من المعلومات التاريخية وتفسيرية عن الأديان السائدة والمعتقدات والسحر والطقوس والأساطير ساعدت على إنتاج نظريات وتأسس علم الاجتماع الأديان.

ثالثا- الدين والتناول السوسيولوجي :

هناك اتفاق على أنه لا يمكن فصل الدين عن علم الاجتماع، إذ أن فكرة الدين كانت من المسائل المهمة والأساسية ولازالت، وما دراسة علم الاجتماع للدين إلا جزء لا يتجزأ من المجهود العام الذي قام به الفلاسفة والمؤرخون والنقاد لفهم الظاهرة الدينية. ولكن لا تزال هذه الدراسات تتسم بالسطحية فتتجاوز في الكثير من الأحيان خصوصيات الظاهرة وملابساتها، كما نلاحظ ذلك الكم الهائل من الطروحات وتراكم التناولات، مما جعل التراث العلمي فيما يخص الدراسات الاجتماعية للظاهرة الدينية، تراثا متنوعا تختلف نظرته للدين من مدرسة للأخرى، حيث نلاحظ ذلك جليا في الخلاف الذي كان سائدا بظهور الفكر العلماني في القرن الثامن عشر، الذي شكك في

جدوى الدين، حيث أصبح هناك من ينظر للدين بنظرة سلبية من حيث أنه يقف في وجه تقدم المجتمعات وتطورها، وبالتالي ما هو إلا عامل مشجع على التعصب وعدم التسامح وتفشي الجهل والخرافة.

في المقابل كان هناك رأيا مخالفا يعتبر الدين إحدى المظاهر التي تتجسد من خلالها أسمى طموحات الإنسانية، فالقيم الدينية تهدف إلى السمو بمكانة الأفراد والجماعات من خلال إشاعتها للأخلاق السامية، وإضفاء الأمن والأمان على الجماعة الدينية.

وأهم ما يمثل هذين الاتجاهين أولا عالم الاجتماع الفرنسي "أميل دوركايم" الذي يعتبر الدين مصدر كل ما نعرف من ثقافة عليا، وأنه منبع كل الأشكال الثقافية المتعالية، وثانيا وفي المقابل كارل ماركس "**K.marx**" الذي يرى عكس ذلك تماما، فالدين ليس سوى معرفة زائفة بالواقع والتاريخ، وهو في النهاية أفيون الشعوب، وهذا ما يدعى بالتيار الإلحادي، حيث ينكر الأديان المنزلة والغيب وكل ماله علاقة بالدين.

وأول الإشكاليات التي تطرح نفسها ليست ما يتعلق بجدوى دراسة الظاهرة الدينية سوسيولوجيا، لأنك إذ نزلت إلى المجتمع ستجد مظاهر الدين في كل مكان في صورة أنشطة وأشكال ورموز هي ذات أهمية بالغة لدى الأفراد والجماعات، بل وتحمل في طياتها عناصر حيوية تعمل كآليات لتنشيط كل الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية على الخصوص، فالإشكالية المهمة يكون قد حددها "ماكس فيبر" "**Max Weber**" حيث يقول " نحن هنا لا شأن لنا على الإطلاق في جوهر الدين، وإنما تهمنا شروط فعل جماعي من نوع محدد وتأثيره"(5)، حيث يحاول "فيبر" أن يحصر دراسة الدين اجتماعيا في إطار نظريته عن الفعل الاجتماعي وذلك حتى لا يدخل في متاهات الميول والرغبات والنزعات محاولا الانتصار للذات التي

PDF-XChange Editor Click to BUY NOW! tracker-software.com

ستظهر في النهاية على شكل بحث يفتقر للموضوعية لباحث فهم كل الأديان من خلال عقيدته أو إيديولوجيته.

لذا كان لا بد من تحديد ميدان الدراسة وتعريفه للظاهرة الدينية في إطار علم الاجتماع، حيث نجد أن هناك شبه اتفاق أكاديمي فيما يخص التعريفات (في المعاجم والمصادر...) في حصر ميدان علم الاجتماع الديني في تيارين :

- **أولا : المنهج المقارن** : وسمي هكذا بسبب تركيزه على التأثير المتبادل بين الظاهرة الدينية والعوامل الاجتماعية والثقافية الأخرى، فتعريف "واش" "**Wach**" يوضح ذلك حيث يقول عن علم الاجتماع الديني أنه "الميدان الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الدين والمجتمع وصورة التفاعل بينهما"(6)، وهو يرى أن الدوافع الدينية تؤثر وتتأثر بالقوى والتنظيم الاجتماعي والتدرج الطبقي، والمهم هو دراسة العناصر السوسيولوجية والثقافية للدين.
- **ثانيا : المنهج الوصفي** : ويتجه مباشرة إلى البحث عن الوظائف أو الأدوار التي يقوم بها الدين داخل المجتمع وأثره في بعض النظم والمؤسسات الاجتماعية القائمة أو في عمليات التغير الاجتماعي سلبا أو إيجابا، ويمتد هذا الاتجاه إلى دوركايم وكتاباته عن أثر الدين في التماسك الاجتماعي، ويبحث هذا الاتجاه في التنظيم الاجتماعي للدين وتحديد مواقفه وعلاقاته مع مكونات المجتمع الأخرى، وهناك أيضا قضايا سوسيولوجية لابد من دراستها مثل موقف الدين من الأشكال العلمانية القائمة (كالأسرة، القبيلة، الدولة) وما يكونه الدين نفسه من أشكال اجتماعية خاصة (كالطوائف والطرق...) وعلاقات الجماعات الدينية ببعضها إضافة إلى علاقة الدين بالسياسة والاقتصاد.(7)

PDF-XChange Editor
Click to BUY NOW!
tracker-software.com

PDF-XChange Editor
Click to BUY NOW!
tracker-software.com

رابعا- مداخل نظرية لدراسة الظاهرة الدينية :

هناك عدة مداخل لدراسة الظاهرة الدينية سنحاول أن نتناول أهمها بإيجاز مع تركيزنا على المدخل الوظيفي فهو أكثر المداخل النظرية تداولا، والذي يهتم بأثر الدين في بقية الظواهر أو التغيرات الحادثة لذلك فإننا تجد العديد من الدراسات وبالأخص العربية تحمل عناوين كهذه (الدين والتنمية، الدين والاقتصاد...).

4-1-المدخل الوظيفي :

يرى عبد الباقي الهرماسي أن جل البحوث في مجال علم الاجتماع الديني تأثرت بالمقارنة الوظيفية "فتركزت الدراسات حول العلاقة الوظيفية بين القيم الدينية والنظام الاجتماعي أي أنه وقع النظر إلى الظاهرة الدينية في أبعادها الوظيفية وفي مدى تأثيرها في نسق العلاقات الاجتماعية ككل وليست كمنظومة قيمية مستقلة بذاتها بهذا المعنى يصبح الدين مستوى من مستويات الحياة الاجتماعية وهو أيضا إحدى آليات اشتغال المجتمع ويؤدي جملة من الوظائف"(8) لذا تكون الإشكالية المطروحة تدور في سياق هذا التساؤل ما هي الوظائف الظاهرة والمتخفية للنظم والمعتقدات الدينية للحفاظ على توازن النسق الاجتماعي ؟

ويمكننا القول أن الدين في خضم التطور الحاصل في المجتمعات وما ينجز عن هذا التطور من أمراض اجتماعية كالانحلال الأخلاقي وتفسخ القيم الإنسانية وما تخلفه من اضطرابات نفسية كالشعور بالحرمان والإحباط...هنا يستطيع الدين القيام بجملة من الوظائف أهمها :

- وظيفة الضبط الاجتماعي والقائمة على تقديس نظام القيم والمعايير الاجتماعية وبذلك يضمن أهداف الجماعة متجاوزا رغبات الفرد.

- وظيفة الانتماء أي الشعور بالانتماء للماضي البعيد والمستقبل (الهوية) ومن خلال هذا نستطيع استنتاج أن وظيفة الدين تقوم على ربط الفرد الجماعة " فهو بمثابة

آليات تعديل وضبط ورقابة في الوقت نفسه آليات تعدل جملة التوازنات بين الفرد وذاته أولا وبين الفرد والمجموعة ثانيا، كما أن هذه الآليات تراقب وتضبط وظيفة الفرد الاجتماعية ووضعيته كإنسان فيغلب الفرد الأهداف الجماعية على نزوعاته الفردية لما يجده في الدين من إمكانيات ترفع من معنوياته وتدعم شعوره بالانتماء".[9]

كما أنه يمكننا أن نجد للدين وظائف أخرى سلبية حيث يمكن أن يكون عائقا في طريق التغير إذا كان وسيلة في أيدي الجهلاء بالواقع المعاصر، ويعمل على المحافظة على الوضع الراهن، ويعمل على تعطيل عوامل التغير والتجديد الاجتماعي والتي يمكن أن تكون ضرورية، كما قد يلعب الدين دورا سلبيا فيما يخص وظيفة الانتماء، عندما تتقاطع الهوية الدينية مع الهويات الأخرى المختلفة في المجتمع الواحد...

وأخيرا يمكن القول أن المدخل الوظيفي يهتم فيه العلماء أكثر، بفحص البناء **Structure** والتركيز على الأجزاء المكونة له ومدى ارتباطها ببعضها، ومن هذا المنطلق اتفق العلماء المهتمون بدراسة بناء الدين على أن هناك ثلاث أنساق متداخلة هي التي تشكل هذا البناء :

1- النسق الفكري والإعتقادي (الدين الرسمي).
2- النسق الفعل أو الشعائر أو الطقوس (الدين الشعبي).
3- النسق المجتمعي أو نسق التفاعل الاجتماعي (الدين الحركي).

النسق الأول والثاني لهما طبيعة رمزية كما أن محتوى هذه الأنساق الثلاثة بتنوع داخل حدود واسعة، أما الثالث فيهتم فيه الباحثون بوظائف **(Function)** بمعنى ما يفعل الدين لاستمرار وبناء المجتمعات والجماعات الإنسانية وهذا ما جعل بارسونس "**Parsons**" يذهب إلى القول أن أفضل اسم يطلق على هذا المدخل هو البنائية الوظيفية[10]

ووفقا لهذا المدخل فهناك ثلاث نماذج رئيسية للمجتمعات، تختلف وظائف الدين باختلافها هي حسب محمد بيومي "النموذج الأول هو الذي تكون فيه القيم الدينية هي السائدة والمسيطرة والنموذج الثاني، هو الذي يحتوي على القيم العلمانية والقيم الدينية، والنموذج الثالث هو الذي تسيطر عليه القيم العلمانية، ويجدر التنويه إن هذه النماذج الثلاثة لا تمثل مراحل حتمية في التطور التاريخي لأي مجتمع، إلا أنه يمكن القول بأن المجتمعات الإنسانية قد مرت بطريقة أو بأخرى بهذه المراحل أو مراحل شبيهة بها".[11]

2.4- فيبر والظاهرة الدينية :

من وجهة نظر فيبر أن هناك أشياء في حياة الإنسان تخرج عن إطار فهم العقل لا نجد لها إجابة علمية مقنعة لذلك يرى، "أن الأجوبة الدينية لهذه القضايا كان لها التأثير الكبير لا على الأفراد فحسب بل أيضا سير المجتمع الإنساني بصفة عامة كما اهتم "فيبر" في بحوثه بعنصر آخر هو الإلهام، وهو عبارة عن خاصية تمنح الفرد جملة من القدرات الخارقة للعادة، وتهبه مستلزمات السلطة للزعامة وإنجاز المعجزات، وهي كذلك نشد الأتباع للفرد"[12]، هذه السلطة هي عنده "الزعامة الكازمائية" حيث أن لهذا المفهوم أهمية بالغة من حيث التواصل بين المراحل التاريخية الماضية والقادمة، حيث يلعب الرسول أو المصلح (الملهم) دورا فيما يخص "أنه يقحم عدة أشياء جديدة في سيرورة الحياة الجماعية وفي سلوك الأفراد، بالاعتماد على الهبة الربانية وعلى خصائص، غير متوافرة لدى الأفراد العاديين"[13].

ولفتت نظرنا أراء فيبر فيما يخص النظام الديني "حيث ميز بين دين القناعة المتجهة نحو الخلاص الذي يتعارض عموما مع العالم، ودين الطقوس أو القانون بصوره الخالصة الذي يتقبل العالم ويحاول التلاؤم معه، ويلاحظ أن أديان الخلاص ليست في خدمة القانون المقدس وإنما في خدمة القناعة المقدسة، إنها تؤثر في أغلب

الأحيان تأثيرا ثوريا على الخطة الأخلاقية، فالسلوك في الحياة ليس له معنى لذاته وإنما فقط تبعا للمعنى الذي يخلعه الدين على العالم".[14]

وتحدث فيبر عن مسألة التوتر القائم بين الدين والفعاليات الأخرى، وتطرق أيضا لمواقف الطبقات الاجتماعية المختلفة من الظاهرة الدينية،وتحدث عن الطبقة العسكرية والتجارية وطبقات الدنيا والعمال وأيضا المثقفين حيث عن هذه الطبقة الأخيرة، يقول "أنه ما من شك في أن مصير الأديان قد تأثر بقوة بضروب النمو المختلفة للمثقفين عبر القرون"[15]، فقد كانت هناك علاقة وطيدة بين العقل والتدين، وكان من الطبيعي أن تتخذ العلاقات اتجاهات أكثر تنوعا بحصول، هذه الطبقة على استقلال أكبر لكنه يرى أنها انطبعت بطابع العلمانية وظلوا يديرون وجوههم للدين ويظهرون مشاعر عنيفة ضده، وهذا على نحو ثوري في بعض الأحيان، لكن ربما يصدق هذا لتلك المرحلة التي عاشها حيث نلاحظ اليوم مظاهر التدين أو كما يسميها "التنسك" ظاهرة تعج بها الجامعات وتستقطب أكثر الطبقات المثقفة أكثر من غيرها مما يدحض مقولة نهاية الأديان التي استشرفها "ماركس" **(K marx)**.

4-3- ابن خلدون العصبية والظاهرة الدينية :

فيما يرى ابن خلدون أن للدين دورا فاعلا في التجربة الحضارية الإسلامية، حيث بإمكاننا القول أنه يمثل العامل الإيديولوجي، سواء أكان رسالة نبوية أو دعوة إصلاحية، كما نعني أيضا الخلافات المذهبية، ويرى أنه عامل مهم في حركة البناء الحضارية حيث يقول عن الدين أنه "المذهب للغلظة والأنفة، والوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يحثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمجهودها ويؤلف كلمتهم ليظهر الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك"[16]، حيث استشهد بفعالية هذا الدور من الواقع الذي عايشه، حيث تحدث عن تاريخ المغرب الإسلامي الذي شهد قيام دويلات انطلاقا من دعوات

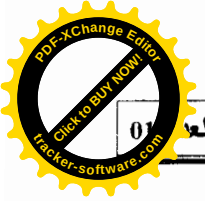

دينية نظر لها رجال دين "ملهمين" من أمثال "ابن تومرت"، حيث يرى ابن خلدون "إن الدين منذ المرحلة الأولى من تطور الحضارة يقوم بدور هام"[17].

لكن رغم هذا الدور الذي كان للدعوة الدينية كعامل أساسي في التجربة الحضارية الإسلامية لكنه تغيير الأوضاع القائمة الأخلاقية منها والاجتماعية ثم السياسية أيضا، لا تتم و لا تنجح إلا عندما تتبناها جماعة قوية بعددها ملتحمة بعصبيتها [18]، حيث يصر على أن "الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم..." [19]، وفي إجابة عن فعاليه الدين يرى (جورج لابيكا) "عثرنا على جواب أول يضع الدين عند ابن خلدون، في امتداد مباشر لعامل العصبية العضوي...التي سمحت بإظهارها سوسيولوجيا العمران وكشفت توسيع الدينامية الاجتماعية من جهة أخرى عن عنصر جديد، هو الدعوة ودورها في زيادة تقوية فعل العصبية. [20]

خامسا–الدين والتغير الاجتماعي :

خلال الخمسينيات والستينيات برزت نظرية "التغير الاجتماعي" "التي اعتبرت أن التغير هو حركة داخل البناء الاجتماعي"[21]، لذا كان اهتمام علماء الاجتماع كبيرا بعلاقة الدين بالتغير الاجتماعي فالدين الذي ينظر إليه كظاهرة اجتماعية موجهة نحو المقدس بحيث يكون له انعكاس على نسق الاعتقادات والممارسات لذا يمكن استعارة هذا التعريف الإجرائي الذي وضعه "عاطف العقلة"، حيث يقول أنه "يمكن تعريف الدين بأنه نسق من الاعتقادات والممارسات، والذي من خلاله تستطيع جماعة من الناس أن تفسر وتستجيب لما تشعر به أنه مقدس وفوق طبيعي"[22]، ولكننا لا تستطيع تحديد هذا المقدس لأن لكن جماعة شيء مقدس يختلف عن الجماعة الأخرى، لكن الدراسات السوسيولوجية بالضرورة لا تهتم بهذا المقدسً بحد ذاته ولكن يقتصر اهتمامنا على السلوك والاتجاهات والنظم المنبثقة عنه، "فليس من واجب علم الاجتماع دراسة ماهية الظاهرة الدينية وإنما السلوك الذي تتجه هذه الظاهرة من جراء اعتمادها

على بعض التجارب الخاصة، وعلى تصورات وغايات محددة، إذن السلوك ذو المعنى الذي يسلكه الإنسان الديني، وهذا ما يهمنا".[23]

أما التغير الاجتماعي الذي يعتبر أساس التحول الذي يشهده النظام الاجتماعي سواء أكان ذلك في البناء أو الوظيفة، خلال فترة زمنية محددة، فقد يحدث هذا التحول في بنيته أو وظيفة، الأنساق الاجتماعية المختلفة أو في أنماط العلاقات بين الأفراد والجماعات، أو في القيم والعادات، حيث يشير إلى ذلك "عاطف غيث" حيث يرى أن التغير الاجتماعي هو "التغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي أي في بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة"[24]، كما أن التغير الذي يمثل ظاهرة اجتماعية قد يحمل صيغة البناء والتقدم وقد يكون مسارا للهدم والتخلف.

أما العلاقة بين الدين والتغير الاجتماعي، فهي تتوقف على المجتمع الذي تحدث فيه هذه المزاوجة فهي تختلف من مجتمع لآخر وكذلك تأخذ بعين الاعتبار المرحلة التاريخية أي أنها تتأثر بالمكان والزمان، وكذلك تعود إلى مكانة الدين في المجتمع والخصوصيات الثقافية، فنلاحظ أن الدين كعامل من عوامل التغير الاجتماعي، قد تتقلص تأثيراته في الغرب نظرا "للعلمنة" و"الحداثة" التي تشهدها المجتمعات الغربية، أما في دول العالم الثالث التقليدية فقد يلعب الدين دورا بارزا في تحريك عجلة التغير الاجتماعي ففي المجتمعات العربية والإسلامية لعب الدين الإسلامي ولا يزال دورا بارزا في تحديد الهوية الحضارية له، من خلال اتصاله بمختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية...إلخ حيث يمكن اعتبار الدين الإسلامي أكثر من أي دين آخر مظلة النظام الاجتماعي السائدة في المجتمع العربي"[25]، ويمكن أن نلاحظ ذلك بسهولة من خلال قراءة تاريخية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية حيث أن الدين كان حاضرا دائما في كل مرحلة من

مراحل التغير بداية من البعثة إلى يومنا هذا وليس أدل على ذلك من تنامي الحركات الإسلامية التي تنادي بحكم الشرع.

لا يمكن فصل الدين عن موضوع السوسيولوجيا، إلى درجة أن مسألة الدين كانت عند نشوء السوسيولوجيا، نقطة محورية في فكر مؤسسي هذا العلم، ويتجدد موضوع السوسيولوجيا بالنشاط النقدي الذي يحتويه أكثر مما يتحدد بمضمونه، وقد عرف تورين **(A.Touraine)** هذا النشاط النقدي بأنه "رفض الاعتقاد في كل التأويلات ابتداء من التبرير الذي يقدمه الفاعل عن نشاطه، إلى غاية المعنى المتجسد في التصنيفات الإدارية التي تبدو على أنها بعيدة من أنها تكون محملة بالنوايا"[26]. لهذا يجب على علماء الاجتماع الابتعاد عن تعريف الدين وأن يأخذوا كموضوع ديني ما يسميه المجتمع على أنه ديني، وهذا يعني أن السوسيولوجيا لا تدرس الموضوع في حد ذاتها، بل تدرسها كما تتجلى في الزمان والمكان أي كسلوكيات وممارسات وتصورات عن هذه الممارسات، وعلى الباحث أن لا يهمه الموضوع بحد ذاته بل ما يهمه هو الاستعمال الاجتماعي للدين (اقتصاديا كان أو سياسيا أو إيديولوجيا...إلخ)، ومن هنا فإن "الظاهرة الدينية مثلها مثل باقي الظواهر الاجتماعية الأخرى، تخضع للمبادئ التي تتحدد بها معرفة الاجتماعي".[27]

الهوامـــش :

1- حيدر إبراهيم (علي): الأسس الاجتماعية للظاهرة الدينية، أعمال ندوة حـــول الـــدين فـــي المجتمع العربي، مرجع سابق، ص39.

2- بيومي (أحمد): علم الاجتماع الديني والقيم، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1989، ص2.

3- نفسه، ص 25.

4- حيدر إبراهيم (علي): المرجع سابق، ص39.

5- أبو طاجون (علي): سوسيولوجيا التطرف الديني، مصر، جذور مظاهر، المكتب الجـــامعي الحديث، 1999، ص 30.

6- خليل (أحمد خليل) : مفاتيح العلوم الإنسانية، معجم عربي، فرنسي، إنجليزي، دار الطليعة، بيروت، 1989، ص 199.

7 - **Durkheim (Emile) : <u>Les Formes élémentaire de la vie religieuse,</u> les système Totémique en australie, Paris éd : seme, 1968.**

8- أبو طاجون (علي): مرجع سابق، ص 40.

9- السمالوطي (نبيل): الدين والبناء الاجتماعي، جدة، دار الشروق، ط1، 1981، ص 109.

10- أبو طاجون (علي): مرجع سابق، ص 40.

11- السمالوطي (نبيل): الدين والبناء الاجتماعي، جدة، دار الشروق، ط1، 1981، ص 109.

12- حيدر إبراهيم (علي) : مرجع سابق، ص 39.

13- حيدر إبراهيم (علي)، مرجع سابق، ص 38.

14- أستاذ في علم الاجتماع في الجامعة التونسية.

15- الهرماسي (عبد الباقي) : علم الاجتماع والديني، المجال، المكاسب، التساؤلات، ندوة الدين في المجتمع العربي، مرجع سابق، ص 18.

16- الهرماسي (عبد الباقي)، المرجع السابق، ص 19.

17- أبو طاحون (علي)، مرجع سابق، ص 30.

18- نفس المرجع، ص 31.

19- الهرماسي (عبد الباقي)، مرجع سابق، ص 17.

20- نفس المرجع، ص 18.

PDF-XChange Editor Click to BUY NOW! tracker-software.com

21- جوليان (فروند) : علم الاجتماع عند ماكس فيبر، دمشق، منشورات عويدات، 1976، ص 162.

22- نفس المرجع، ص 103

24- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة، بيروت، دار الكتاب والعلمية، ط1، 1993، ص 452.

25- مغربي (عبد الغني) : الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر، محمد الشريف بن والي حسين،م.و.ك، الجزائر، 1986.

26- الجابري (محمد عابد) : فكر ابن خلذون "معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي"، بيروت، مركز دراسات الوحدة، ط6، العربية، 1996، ص 252.

27- نفس المرجع : ص 252.